مؤرخ ينظر الى العالم (١)

إننا جميعاً نتطلع إلى العالم ونتطلع اليه بقلق . فكيف يمكن للمؤرخ أن يساعد معاصريه على مشاهدة الصورة ومشاهدتها كما هي مع أبعادها . إن المؤرخ ينظر الى الأمور من الزاوية التي تتيح له أن يراها تتحرك وتتغير مع الزمن . والزمن بالنسبة الى الشؤون البشرية عنصر أساسي من عناصر الصورة ، فعلى الانسان أن يتطلع الى الحاضر مستعيناً بنظره الى الماضي إذا ما أراد أن يرى الحاضر على حقيقته . وعلى الانسان أن يرى الحاضر على حقيقته إذا ما أراد أن يتنبأ عن المستقبل ويؤثر فيه . وهذا ما يجعل نظرة المؤرخ الى العالم مفيدة بالنسبة الى الآخرين . فالمؤرخ يرى شؤون البشر في أربعة أبعاد بدلاً من ثلاثة ، والبعد الرابع عنده هو الزمن .

وعندما ينظر الإنسان الى الحاضر مستعيناً باطلاعه على الماضي سرعان ما يتساءل : هل الأمور التي تحدث الآن هي أمور جديدة تماماً في الاختبار البشري ، أو أن هنالك أموراً تشبهها من قريب أو بعيد حصلت في الماضي ؟ فاذا أجاب التاريخ عن هذا السؤال المتعلق بأمور تسبب لنا القلق الآن فالجواب قد يكون على جانب عظيم من الأهمية في معالجة مشاكلنا . ولذا فاني سأتعرض الى عدد من مشاكلنا البارزة ، ثم أطرح السؤال الذي يطرحه المؤرخ : هل كان لهذه المشكلة أو لهذه الحالة أو لهذا الحادث سوابق تاريخية ، أم هي مشكلة جديدة . وسأعالج أربعة أمور تزعجنا اليوم وهي :

١) الشعور بأننا نعيش في عصر أزمة ، ٢) مشكلة الحرب ، ٣) تقلص حجم العالم ، ٤) تقييد الحياة وتنظيمها .

(١) محاضرة للأستاذ أرنولد توينبي لخصها وترجمها الدكتور جورج حداد .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١ ـ عصر أزمة :

إن كل جيل يشعر بأن عصره هو أهم العصور في التأريخ . ومن الواضح أنه أهم عصر بالنسبة الى الجيل صاحب العلاقة ، ولكنه ليس أهم عصور التأريخ . وليس بمقدورنا أن نحكم على أهمية عصرنا ، وإنما يُترك ذلك للأجيال . وهنالك ناحيتان مختلفتان قد يبدو فيهما العصر مهماً للذين يعيشون فيه : الأولى أن يكون عصرهم عصر ازدهار مثل أثينا في القرن الخامس ق . م ، وبغداد في القرن الثامن والتاسع الميلادي ، وفلورنسة في القرن الخامس عشر ، وانكلترة في عصر اليزابيث . والثانية أن يكون عصرهم عصر أزمة قد تنتهي بكارثة كالقرن الخامس م في نظر القديس أوغسطين ، وعام ١٠٠٠ في نظر المسيحيين في الغرب (لأن المسيحيين الغربيين اعتقدوا أن العالم سينتهي بعد ميلاد المسيح بألف سنة) و ٧٠٠ ق . م في نظر الشاعر هسيود والعصر الحاضر في نظرنا .

واذا نظرنا الى تلك العصور التي بدت كعصور أزمة ، في صلتها بالشعب الذي عاش فيها ، فاننا نلاحظ أمرين لهما علاقة بنظرتنا الى عصرنا الحاضر : الأمر الأول انه بناء على النظرة الصحيحة التي يعطينا إياها مرور الزمن نوافق مع أوغسطين على أن القرن الخامس م كان عصر أزمة في المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية ، ولكننا لا نوافق على أن عام ١٠٠٠ في أوربة الغربية و ٧٠٠ ق . م في بلاد اليونان كانا عصور أزمة ، بل بالعكس اننا ننظر اليهما كفجر لعصور ازدهار . والأمر الثاني أنه بخلاف نظرتنا اليوم ونظرة أوغسطين الى القرن الخامس كعصر أزمة فان الكثيرين من معاصري اوغسطين في المقاطعات الغربية لم يشعروا بأن الامبراطورية الرومانية كانت على وشك السقوط . وهنالك دليل على ذلك في الأدب اللاتيني من ذلك العصر . إن هذه الاعتبارات ترينا صعوبة تقدير أوصاف عصرنا ؛ فقد نكون على وشك تخريب كل مظهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للحياة على هذا الكوكب وجعله غير قابل للسكنى بصورة نهائية ، أو قد نكون على أبواب فترة سلم دائم وعدالة اجتماعية . وعليه فاننا لا ندري ، ولكن الذي نعلمه هو أننا نفضل أن يذكرنا التاريخ رواداً لعصر ذهبي على أن نصبح في عالم النسيان بقضائنا على الحياة في الأرض ، وبعملنا على إنهاء التأريخ . ولدينا فرصة أعظم لأن نكون روّاد عصر ذهبي اذا اعتبرنا أننا نعيش في عصر أزمة ، واذا بذلنا ما في وسعنا لإعطاء هذه الأزمة مخرجاً حسناً .

٢ ـ مشكلة الحرب :

إننا نخشى الوقوع في حرب عالمية ثالثة . وخوفنا من الحرب يفوق خوف الأجيال الماضية ، لأن الحرب الجديدة تُستعمل فيها الأسلحة الذرية ، واننا بحق نخشى أن تكون النتيجة القضاء على الحياة في هذا الكوكب .

وهنا نتساءل : هل مشكلتنا الحالية في موضوع الحرب قديمة أم جديدة ؟ أم أن بعضها قديم والآخر جديد ؟ وما هي النواحي الموجودة في وضعنا الحاضر والتي لها سوابق تاريخية ؟ والجواب : ١) كانت الحرب في الماضي تسبب مصائب كبرى ؛ وقد قضت على محاولات لنشوء الحضارة ، ولكنها لم تمنع البشر من القيام بمحاولات جديدة لترقية الحضارة ، كما أنها لم تهدد قط هذا الكوكب بأن يصبح غير قابل للسكنى ، ٢) في الماضي عمل تقدم الفنون الصناعية على متابعة إنتاج أسلحة جديدة أكثر فتكاً من الأسلحة التي سبقتها : فقد استخدمت الفؤوس اليدوية من الصوان بدلاً من قبضة اليد العارية ، ثم القوس والسهام بدلاً من الصوان ، ثم الأسلحة النارية بدلاً من الأقواس . وكل من هذه الأسلحة جعل الحرب أفظع وأشد هولاً ، ولكنه لم يسفر عن تخلي الإنسان عن الحروب ، والسلاح النووي هو مرحلة أخرى من هذه السلسلة ؛ فهل يستمر الانسان على شن الحروب ، كما فعل في الماضي ، بالرغم من اضطراره الى مجابهة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سلاح أشد رهبة ؟ أم هو سيتخلى هذه المرة عن الحرب ؟ ٣) في الماضي أدت أعمال التخريب المادي والمعنوي التي تسببها الحرب الى حمل الناس على محاولة إبطال الحروب كما نفعل اليوم . وقد أخفقوا في بعض الأحوال ، ونجحوا في بعضها جزئياً في إبطال الحروب من رقعة كبيرة من الأرض (كما حصل في امبراطورية الصين وفي الامبراطورية الرومانية وفي دولة آسوكا في الهند) . فهل نحن في عالمنا اليوم سننجح أم سنفشل ؟

ثم ما هي النواحي في وضعنا الحاضر التي ليس لها سوابق تاريخية ؟ ان الحرب مبنية على افتراضين كان لهما دائماً ما يبررهما في الماضي ، فاذا لم يبق ما يبررهما الآن فان الحرب تصبح غير عملية وعديمة الجدوى لأول مرة في التاريخ . أما الافتراضان فهما : ١) أن بامكان الجندي أن يدافع عن أسرته وشعبه وبلاده ودولته ، إذا ما خاطر بحياته أو فقدها ، ٢) أن الحرب لا بد أن تسفر عن طرف خاسر مهزوم وطرف رابح منتصر ، وأنه أفضل للانسان أن تكون بلاده منتصرة من أن تكون منكسرة ، وأن هذا جدير بأن يضحي الانسان بحياته لأجله .

يبدو لي أن هذين الافتراضين قد بطل عملها ، أو لم يعد ما يبررهما لأول مرة في التاريخ بسبب اختراع الأسلحة الذرية . ففي الحرب الذرية كل ما يحاول الجندي أن يدافع عنه محكوم عليه بالفناء مع الجندي نفسه وفي اللحظة نفسها ؛ وليس هنالك فارق بين طرف خاسر وطرف رابح لأن الطرفين يهلكان في آن واحد . إن هذا لما يجعل الحرب عديمة الجدوى ؛ وهذا يعني أن اختراع الأسلحة الذرية ليس مجرد مرحلة أخرى في سلسلة الأسلحة المهلكة . إن قدرتها على التخريب لا تجعل الاختلاف اختلافاً كمياً فقط ، وإنما اختلافاً كيفياً أيضاً . ولذا فاننا نجد هنا عنصراً جديداً في مشكلة الحرب ، ولأول مرة في التاريخ نجد أن مجال الاختيار هو بين أمرين لا ثالث لهما وهما : إما إلغاء الحرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو إبادة الجنس البشري . وهذا الوضع الجديد على ما أعتقد سيحمل الجنس البشري على عمل ما لم يعمله في الماضي وهو إبطال الحرب .

٣ ـ تقلص حجم العالم :

أود الإشارة في هذا الموضوع أولاً : الى القضاء على المسافات بتحسن وسائل المواصلات ، ثانياً : الى استنفاد احتياطي العالم من الموارد الطبيعية ، ثالثاً : الى نمو عدد سكان العالم .

فالقضاء على المسافات قد وضع وجهاً لوجه ، وبصورة مفاجئة ، شعوباً لا تزال غريبة بعضها عن بعض ومجهزة بأسلحة ذرية . وهذا ما يسبب الخوف المتبادل ، والخوف يسبب العداء . ويحدث ذلك على مقياس عالمي . وبالرغم من جهود جميع الحكومات لمنع تسرب الأفكار الأجنبية فان الناس يخافون من انتشار هذه الأفكار الآتية من الخارج . وأما ضمن حدود بعض البلاد فان القضاء على المسافات نتج عنه امتزاج الشعوب المؤلفة من جماعات مختلفة في العرق واللغة والدين والعادات . ولكن هذا الوضع ليس جديداً . فالقضاء على المسافات كان تدريجياً بتدجين الحصان واختراع المركب الشراعي قبل اختراع الطائرة . وقد عالجت الدول بنجاح ما نتج عن ذلك من اختلاف في الأفكار وامتزاج في الشعوب . فقد كان هنالك اختلاف في الأفكار في الامبراطورية الرومانية ، وتمازج للشعوب في الامبراطورية العثمانية حيث أوجد نظام « الملة » . وهنالك مثال يحمل على التفاؤل في وجود نحو ستة عناصر في جزر هوائي أتى أفرادها من أماكن مختلفة ، ويعيشون معاً على وفاق تام ، وكذلك الأمر في بلاد الملايو .

قضية استهلاك موارد العالم : ان البشر ما زالوا ينهكون مروج العالم ويحولونها الى بوادي ، ويستهلكون المعادن الجامدة والسائلة على مقياس لم يسبق له مثيل ، فهل ستنتهي الموارد الغذائية والمواد الصالحة لأجل الآلات والوقود . هنا أيضاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نجد مجالاً للتفاؤل اذا تطلعنا الى الماضي . ففي الماضي كانت اختراعات الانسان التكنولوجية دوماً تسبق استهلاكه للمواد الغذائية والمواد الخام . فقد كنا دائماً نهمل بعض المواد الخام قبل استنفادها . والعالم اليوم لا يزال مملوءاً بالصوان الذي يمكن استخدامه للأدوات الصوانية ، لأنه قبل نفاد هذه المادة تركها الإنسان واستخدم المعدن لصنع الأدوات . وربما نكون قد استبدلنا بالمعدن مادة أخرى خاماً قبل استنفاد الموارد المعدنية ، وقد تستبدل القوة الذرية بوقود البترول ، كما سبق واستبدلنا البترول بالفحم ، والفحم بالخشب . وانهاك الأراضي ليس أول حادث من نوعه في التاريخ ، فبعد نهاية العصر الجليدي الأخير حولت الطبيعة الصحراء الكبرى وبلاد العرب وأواسط آسيا من أراض ممتازة يصيد فيها انسان العصر الحجري القديم الى صحار لا حيوانات للصيد فيها . ولكن الانسان استجاب لهذا التحدي بأن أصبح زارعاً ومربياً للمواشي بعد أن كان صياداً ، وتمكن في ظروف طبيعية أقسى أن يعيل عدداً أكبر من السكان وعلى مستوى أرفع .

نمو السكان : لقد حصلت في الماضي زيادات عظيمة ومفاجئة في السكان بسبب التقدم الصناعي ، وذلك عند الانتقال من جمع الأغذية الى حياة الصيد ، ومن حياة الصيد الى تربية المواشي والزراعة ، ومن هذه المرحلة الى حياة الصناعة والتجارة . وخلال القرنين الأخيرين حصلت زيادة أخرى بتخفيض معدل الوفيات وذلك بأساليب الوقاية الطبية الحديثة . غير أنه ربما لعب الطب الواقي في تأريخ زيادة السكان نفس الدور الذي تلعبه القنبلة الذرية في تأريخ الحروب فتأتي بوضع جديد . وفي الماضي كان نمو السكان دائماً يسبقه تقدم في الصناعة والاختراع . ولكن الطب الواقي الآن ، ولأول مرة ، يجعل قانون مالتوس موضعاً للتطبيق . واذا حصل ذلك فمعناه ثورة في علاقات الأسرة والمجتمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فمدد الأولاد حتى الآن كان مسألة خاصة بالأسرة وبالوالدين ، أما في المستقبل فقد يصبح ذلك موضوع اهتمام عام ، وقد تصبح الكلمة الأخيرة فيه للسلطات العامة ، غير أن ذلك يكون تقييداً للحرية لا مثيل له .

٤ ـ تقييد الحياة وتنظيمها :

ان تكبيل الحياة بالقيود والأنظمة هو الثمن الذي كان يدفعه الإنسان دائماً لقاء زيادة الثروة والقوة . فحياة جامع المآكل أكثر حرية من حياة الصياد ، وحياة الصياد أكثر حرية من حياة المزارع أو مربي المواشي ، وحياة هؤلاء أكثر حرية من حياة العامل الصناعي . وفي أيامنا نشاهد عاملين جديدين يعملان على زيادة القيود :

١) خطورة الآلات ذات القوة الفائقة ـ من الوجهتين المادية والاجتماعية ـ في عالم تلعب فيه الآلة دوراً كبيراً . فوجود شرطة السير في أيامنا رمز لما يحدث في جميع نواحي الحياة ، وهو في الوقت نفسه يفسر لنا لماذا يجب أن يحدث ذلك .

٢ ـ الطلب المتزايد لتحقيق العدل الاجتماعي . فالأسلوب الوحيد لمساواة الضعفاء بالأقوياء هو تقييد حياة الأقوياء والضعفاء على السواء . والتقييد قد يكون اختيارياً وقد يكون إجبارياً ، فالضرائب المتصاعدة هي تقييد إجباري للذين هم أقوياء اقتصادياً ، على حين أن النقابات الصناعية هي تقييد ذاتي اختياري للذين هم ضعفاء اقتصادياً .

والغالب أن الاتجاه نحو التقييد هو أعظم في العالم المعاصر منه في أي مجتمع مضى . ومع ذلك فان وضعنا ليس بجديد ، وله سوابق في تقييد الحياة في الامبراطوريات العالمية (كالامبراطورية الرومانية والصينية وغيرهما) . وكانت القيود هي الثمن الذي دفعه الناس للتخلص من الحروب والثورات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومع ذلك فان اختبار ما حصل في هذه الامبراطوريات مطمئن على العموم . فقد اتضح أنه يستحيل الغـاء الحرية البشرية أو القضاء على قوة الإبداع . فاذا منعت هذه الأمور في ميدان السياسة ظهرت في ميادين الاقتصاد والعلم ، وفي ميدان الديانة ، كما حصل في الامبراطورية الرومانية . فالطبيعة البشرية لا يمكن أن تجمّد أو تثبّت .

لقد كانت الامبراطوريات العالمية مهد الديانات العالمية الموجودة الآن ، فهل سيؤدي ضغط التقييد في عالمنا الى أن يضع الإنسان آماله في الديانة من جديد ؟ إن في عصر ذري تكثر فيه القيود قد تكون الديانة فرصة الانسان العظمى لبلوغ الحرية .

أرنولد توينبي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net